سيكولوجية النمو
وعلاقتها بالتربية

يمر الطفل بأربع مراحل يتطور فيها سلوكه من المستوى الغريزي الشواني حتى يستقر ويخضع للعقل . ويسمي الدكتور إرنست جونز المرحلة الأولى بالطفولة المبكرة ، وتبدأ من الميلاد حتى العام الخامس ، ويسمي المرحلة الثانية بالطفولة المتأخرة ، وتنتهي في العام الثاني عشر ، أما المرحلة الثالثة ، وهي مرحلة المراهقة فتنتهي في العام الثامن عشر تقريباً ، وتلي ذلك مرحلة النضوج

ويرى الدكتور ارنست جونز أننا نتطور دفعتين في حياتنا ، فرحلة الطفولة الأولى تتكرر بصورة أخرى في مرحلة المراهقة ، وتتخللهما فترتا الاستقرار . وكأنما تنضي الطبيعة على ما بلته في المرحلتين الأخريين لتبني من جديد أسس الشخصية . وفي المراهقة استعادة نسبية لمرحلة الطفولة الأولى ، وفيها يحيا الفرد حياة تشبه حياة الطفل من وجوه عدة ، ويبني جونز آراءه على التحليل النفسي ، ومظاهر النمو الجسمي والعقلي .

ويختلف الطفل في مراحله الأولى عن البالغ في تركيب عقله ، وتدل اختبارات الذكاء على أن قواه الذاتية تنمو بالتدريج حتى سن البلوغ . وسلوك الطفل في هذه المرحلة غريزي ، وتسعى غرائزه لإشباع ذاتها ، وبذلك يتعلم الطفل بالتدريج كيف يؤخر الزمن بين المؤثر والاستجابة . ويخضع سلوك الطفل في هذه المرحلة لقاعدة اللذة والألم ، وكما يقول مكدوجل من يمس النار يخشاها فيما بعد . ثم يتصل الطفل بالمجتمع ، فيمثل سلوكه الخلقي تبعاً للثواب والعقاب ، والمدح والذم . ومن ميزات الطفولة الأولى التواكل والاعتماد على الغير جسمياً ووجدانياً ، فالطفل يريد أن يستأثر بعطف من حوله ، ثم يستقل بنفسه بالتدريج . وخيال الطفل في هذه المرحلة متسع جامح ، يكسو الجماد بالحياة ، ويخلق لنفسه عالماً يملؤه أبطالاً خياليين ، وتعوض أبطاله فيه عما يشعر به من نقص ، كما يجد فيها منفساً عما لا يستطيع أن يسيطر عليه من حقائق . وفي هذه الفترة يحب الطفل التكرار ، ويشعر بلذة نتيجة الشعور بالسيطرة ، وهي نتيجة سلبية قوية ، أو عرف واقعي ، وبكي يحدث في نفسه الاتزان ويشعر بالأمن يلعب دور مبدأ هذا الانقلاب . فقد يرى الطفل خطأ وينفر منه ، ثم

يتخذ من المساند المنزلية قطعاً من القصم ، وقد يرى حيوانات مفزعة في حديقة الحيوان ، ثم يستعيد تمثيل ماوآه بتلهف بعد حين .

وقبل أن تظهر نتائج التحليل النفسي ظنّ الناس ان الغريزة الجنسية لا تظهر في الطفولة الأولى ، ثم أظهر التحليل النفسي أنّ حياة الطفل الجنسية غنية متنوعة في نواحيها الجسمية والعقلية ، وإنما هي ضمنية كامنة لا تتجلى وتحتل الناحية العقلية إلاّ في سنّ الزواج . والطفولة مرحلة حب الطفل لذاته ، ولذته فيها مادية حسيّة ، وفي فمه تتركز معظم خبراته ، وتنتقل عاطفة حبه لذاته تمتد منه الى أمه ، دون أن يكون غيريّاً كاملاً ، فالأم مصدر غذائه وراحته . وكثيراً ما يحدث توقف في حياة إنسان عند هذه المرحلة فيظل المرء معلقاً بأمه . على ان التطوّر الطبيعي يجعل من الأبوين نواة لعواطف الطفل ، ويرى فرويد أن عاطفة الطفل لأمه عاطفة حب ، بينما هي كراهيه نحو أبيه ، ويسمي ذلك بعقدة أوديب ، وإنما تظل هذه العقدة مكبوتة لتنافيها مع المعايير الخلقية الاجتماعية ، وتظهر اذا ظهرت قسوة الأب . أما الطفلة فتحب أباها وتكره أمها ، ويطلق فرويد على تلك العقدة عقدة الكترا . على انه بالرغم من ذلك قد تكون الصلة بين الأب وابنه والأم وابنتها قوية ، ولا يوضح فرويد علة كراهية الابنة لأمها .

وتظهر معالم الطفولة الأولى في حركات الطفل العشوائية ، وهي حركات لازمة لاتصاله بالعالم الخارجي ، فتتكوّن لديه مبادىء الخبرة ، وفي عامه الثاني تعتمد عملياته الحيوية من تدرل وتبرز وغذاء على حواسه ، والفم أهم مراكز خبراته ، يليه البصر فالسمع والشم ، ومن طريق هذه الحواس تتصل الخبرات وتتدمج ، وتنمو حياة الطفل العقلية بنموها . ويرى فرويد أنّ الفم مصدر لذّة حسيّة ومركز انفعالات حتى الشهر السادس ، وهو مصدر الشعور بالقوة والقبض على الأشياء حتى العام الثاني . ويمر الطفل في العامين الأولين بمراحل انتقال قد تحدث بها أزمات ، كالفطام . ولذا يجب أن يكون تدريبيًا لا فجائيًا . أما القدرة على السير ، فتهب الطفل شعوراً بالقوة ، وتساعده على كسب المهارة ، وتمنحه لذّة التكرار ، وتمكنه من فهم العالم والسيطرة عليه والشعور بالأمن فيه . أما القدرة على الكلام فتتدرّج من الصراخ والضحك والمناغاة العشوائية الى الاتصال الاجتماعي ، وتشعر الطفل بقدره وباستقلاله ، وتتكوّن فكرته عن نفسه ، أساسها اسمه ، وجسمه وقدرته على المقاومة فهو كائن حي يشعر بذاته ، انتقل من دور السلبية الى الايجابية الاجتماعية .

أما بين العام الثاني والخامس ، فتكثر أسئلة الطفل عن العالم المادي والاجتماعي وعن خبراته الجنسية ، ويميل الى اللعب والتكرار ، إذ يريد الشعور بالأمن في بيئته . ويهتم الطفل

معرفة مصدر الأطفال ، وهو لا يطلب المعرفة والمهارة لذاتهما ، وإنهما كوسائل للتعامل الاجتماعي ، وفهم العلاقات بالتقليد أو المساعدة التحدي أو الاغتصاب . ويميل الطفل في هذه الفترة للهدم والتركيب ، فالهدم سريع النتيجة ، سهل المأخذ ، ولذا يفضله على البناء . ويبذل الطفل جهداً ليركز انتباهه ويزيد انتاجه في اللعب وتدق حركاته بالتدريج . ومن الضروري لتكوين ذاتية الطفل ما يظهر من غضب وصياح وغيرة وخوف واغتصاب وندم نتيجة تدخل السلطة الاجتماعية إذ تتكون فكرته عن ذاته تبعاً لها . ويستقبل الطفل أحكام السلطة أولاً ثم يطبقها على غيره — وبين ذلك ينمو الضمير ، ويخشى الطفل في هذه المرحلة الموت والظلام وكل ما هو غامض مبهم .

وينمو الطفل بين الخامسة والسادسة نمواً حركياً ولغوياً واجتماعياً ، وتزيد خبرته ومهارته عن طريق اللعب والتجريب ، وتقوى ارادته وقدرته على الانتباه ، ويساير عمره العقلي عمره الزمني تقريباً . وينتقل الطفل من الفردية إلى الجماعة ، دون أن يكون شعوراً اجتماعياً ناضجاً ، وإنما هو فرد في قطيع ، يحتاج للقطيع ليشبع حاجات نفسه . وينسب الحياة لمظاهر الطبيعية كما تفعل الشعوب البدائية ، بغض النظر عن الذكاء والتعليم .

وتبدأ بعض صفاته الاجتماعية من تعاون وحكم وحنان في الظهور ، ويميز بين ذاته وبين العالم الخارجي ، وفي نهاية هذه المرحلة ينتقل إلى الحقيقة والواقع ، حتى إذا ما جاوز الثامنة من عمره ازداد تعامله الاجتماعي ، وانتقل من الذاتية إلى الموضوعية ، وتحرر من التواكل ، وبدء يندمج في مجتمع ، وأخذ تفكيره في القوة والتحسن .

أما في مرحلة الطفولة المتأخرة أي ما بين الثامنة والثانية عشر ، فيستقر نمو الطفل الجسمي والعقلي . فالنمو الجسمي والعقلي لطفل كالموجة ، وكأنما تتبادل الطبيعة التقدم والاستقرار فيزداد نمو الطفل في عامه الثالث ، ثم يستقر حتى السادس أو السابع . وهذا الاستقرار من مميزات الطفولة المتأخرة . فالطفل مستقر هادئ يعرف كيف يسلك في هذه الفترة .

ويطيل ستاغلي هول هذا الاستقرار والاستطراد في النمو تبعاً لنظريته التلخيصية فيرى ان الطفولة استعادة لمرحلة من الحياة كان عمر الناس فيها قصيراً فاثروا فيها النضوج . ويتكيف الطفل في هذه المرحلة تبعاً لمطالب المرقف ، ويفقد هذه القدرة في المراهقة ويستعيدها بعدها .

وتتسم الطفولة المتأخرة باكتمال نمو الغريزة الاجتماعية . فالطفل في سنواته الأولى لا يحب الكبار إلا كوسائل لإشباع حاجاته ومطالبه ، ويكره الوحدة لحاجته إلى غيره .

أما في هذه الفترة ، فيبدأ الطفل حياة الجماعة ، وتصير الجماعة وسيلته للتنفيس عن غريزة السيطرة ، وهو عضو في الهيئة ، ويساهم في مشروعاتها وألعابها . ويجب أن تحول الأم إذا ما انصرف الغلام عن المنزل فلا يراه إلا مكاناً للطعام والنوم ، وذلك مزين الطبيعة إلى المراهقة . على ان الغريزة الاجتماعية لم تظهر في أرقى صورة السلوك الاجتماعي فهو لم يتم بعد معنى الايثار ، وإنما تظهر غرائز السيطرة والخضوع حين يقود ويقاد ويتضح سلوكه في هذه الآونة للتراب والعقاب الاجتماعي ، وفي هذه المرحلة بداية العادات الاجتماعية من أخلاق ودين ، ويشعر الطفل بدينه للعصابة ووجوب طاعة قائدها ، والخضوع لرأيها العام . وكثيراً ما يكذب الطفل في المدرسة طاعة للعصابة ، وإنما علينا أن نحول نشاط العصابة لخدمة المجتمع الأكبر ، وفي جماعات الكشافة والتوادي خير حل لعلاج مشكلات هذه المرحلة بما فيها من مبادىء سامية وجماعات راقية .

وتمتاز الطفولة المتأخرة بالاهتمام بالخارج ، وبحقائق العلم ، فيهتم الطفل في العاشرة بالأمور الخارجية أكثر مما يهتم بحياته النفسية الداخلية . ويهوى الألعاب الخارجية وحياة المعسكرات ، ويهتم بالعمل وفي سبيله يحصل على العلم . وهذه المرحلة مرحلة استقرار جسمي ونقل فيها المرض والوفاة ، وحدة الانفعال وسرعته ، ويزداد التفاضل من النشاط ، ويدق السلوك وتظهر المهارة ، وتظهر العصابة ذات الزعيم واللغة السرية والمفاخرة والمباراة ، وما زال سلوك الغلام في هذه الآونة خاضعاً لبقايا السلطة ، ويحترم القاعدة لأنها بنت السلطة ، ثم يتغير تقديره للسلطة إذا ما استبدت بالولاء للعصابة ، ويحتقر الطفل الضعف الجسمي والعقلي في هذه المرحلة ، ويحب القوة والحزم . وينتقل من حب الظهور إلى حب الاستطلاع ، ويبدأ في تعليمه العقلي والجسمي بالقاعدة العامة ، ثم يسير نحو التفاصيل الجزئية ، ويميل إلى الجمع والامتلاك ، كمقدمة للاهتمام العلمي كما حدث لداروين ، ثم يحترم حقوق غيره ليأمن على حقوقه ، فيعلم واجباته . ويجد الطفل إشباعاً لميوله الخاطرة في العصابة ، وفيها يدرب نفسه على الثقة بنفسه ، وينمو عقله فيفرق بين الخيال والواقع ، ويرتقي من التأثر بالثواب والعقاب إلى المدح واللوم ، ويميل إلى نقد السلطة حتى يثور عليها ، وميوله في هذه المرحلة عملية ، والميول العلمية وسيلة لها وهو يحب الحركة والكشف والجمع والاستفهام عما يراه من حيوان وانسان ، ويهوى العمل اليدوي المحسوس ، والرسم والموسيقى ، ويحب الحركة والمغامرة .

أما المراهقة فهي فيه استعادة للطفولة الأولى ، يفقد المراهق فيها استقراره وثباته ، ويجد نفسه في عالم غريب ، فقدت عاداته القديمة قيمها ومعانيها جسمياً وعقلياً .

فالمراهق خشن المسلك عنيد كثير الانفعال ، يعتقد انه مضطهد من الجماعة ومحط نقدها . ويعيش بين ثورة جامحة وحزن شديد ، على أن خياله يتسع ، ولكنه ينطوي على نفسه وعقله الباطن . ومن أهم مميزات هذه المرحلة النمو الجنسي الذي يستيقظ ويتجه نحو الغرباء بعد أن كان يدور حول والديه فيما يرى جونز . والغريزة الجنسية لدى المراهق حقيقة حية . ولذا لزم علاج هذه المرحلة حتى يجتاز المراهق أزمتها بسلام . ويرى البعض في الكشافة علاجاً للانطواء ، وفي الرياضة البدنية ميداناً لتوجيه نشاطه ، وربما كان في الفنون الابتداعية أعلاه وتوجيه لمشاكله الجنسية ، على ان التربية الجنسية الصحيحة الصريحة لازمة لازالة ما يحيط بها من خجل وتكتم ، حتى لا يشعر المراهق بشذوذ أو مرض ، مصحوبة بالعطف وحسن التفاهم بين الوالد والمراهق .

ويستقل المراهق بنفسه في هذه المرحلة ، ويجد أبطاله في التاريخ والأدب والحياة ، وربما كان ذلك امتداداً لاعتماده على أبويه . وتصادف تعاليم الدين هوى في نفس المراهق حين يبحث عن مثل عليا تحتل مكان والديه . وفي الدين مخرج للتوتر الجنسي الذي يشعر به ويسكن آلامه ويخفف من وطأة صراع جسمه مع نفسه . على أن الإيمان والشك يجتذبانه إذا ما فشل الدين في حل مشاكله الخلقية ، واصطدم بالعلم الذي يتبعه ، وربما وجد في الفلسفة مخرجاً فيميل نحو الهيلينية الوثنية ذات الاتزان والاعتدال ، وربما ترهب للبحث عن الحقيقة في العلم والجمال في الفن . اما السلوك الخلقي للمراهق فهو مضطرب بصورة عامة ، نتيجة الثورة الجنسية الكامنة حيناً ، الثائرة أحياناً . وينتهي إلى ضبط نفسه حين يكون مثله العليا وعواطفه من أبطاله المحبوبة ، فيسير إلى مرحلة الاستقرار ، حين يخضع سلوكه للمثل الأعلى ، لا لمجرد الثواب والعقاب الاجتماعي . وقد وضع هذه المثل العليا قلة من الناس كثيراً ما خرجوا على المثل المتوارثة ولم يعبأوا بالنتائج الاجتماعية ، بل فرضوا مثلاً عليا أثارت صلاً جديدة .

* * *

ويؤدي النمو الجسمي للمراهق الى نمو أعضائه دون اتزان ، فينمو عضو أكثر من الآخر كالشعر ، ويزداد نشاط الغدد التيموسية والصنوبرية والتناسلية ، ويصحب التغير الجسمي تغير نفسي يصحبه صداع أو كسل ، ويصحب هذا النمو قلق ، فتفزع الفتاة حين تكبر قدماها ويداها ، ويتصنع الفتى الرقة ، ويصحب الاضطراب الداخلي اضطراب جنسي من ظواهره عادة الاستمناء عند الأولاد والعادة السرية عند البنات . والعادة السرية مهما يكن أمرها وصيلة الى الخلاص من توتر ، على أن أكبر أضرارها ما يصحبها من صراع نفسي

بين مزاولتها والامساك عنها ، وهي وصية هادئة غير طبيعية يشبع بها طفلة نفسه ، وربما كان في تهيئة جو الاتصال الخارجي الى أكبر حدّ ممكن علاج لها .

وتشتد رغبة المراهق في الاستقلال بنفسه ، فيتقدم خطوة اجتماعية ، وتتخذ هذه النزعة صورة ثورة على المنزل والمدرسة وما يمثل السلطة القديمة ، ويبحث عن أبطاله في أماكن أخرى ، كالمكتب أو في الواقع ويبحث عمن يلقي بأعبائه العاطفية عليه ، فكثيراً ما تتعلق فتاة بمدرستها أو بفتاة أخرى وترسل إليها خطابات غرامية . والبطل عنصر مهم للمراهق ، وإذا ما قدمت له نماذج مثالية مرغوب فيها ، تجرد من الأفراد والأشخاص ، وانتهى إلى حب الصفات ذاتها . ويشتد ولاء المراهق للجماعة ، ومن مظاهر ذلك الكذب الوقائي . ويبلغ ذكاؤه الذروة في هذه المرحلة ، من ناحية الطاقة لا من ناحية التحصيل . ويخصب خياله ويصبح إغراق في أحلام اليقظة والتفكير الآني

ويلبغي أن تمثل كل تلك النوازع لتعبر عن نفسها تعبيراً مرغوباً فيه ، كالرسم والشعر والموسيقى ، فيحب الجمال وينتج فيه ، ويحب الفلسفة والبحث العلمي وحقائق الكون ، مع تدريب قدرته على النقد . وفي هذه المرحلة يتكوّن الشاعر والفيلسوف والعالم ، كما أن فيها يتكوّن الشاذ والجاهل والمجرم ، ومن فشل في التكيف الاجتماعي ولم يلق عناية وعلاجاً صحيحاً .

وتنتهي هذه المرحلة باكتمال النموّ والرشد لتستمر الى نهاية الحياة ، فينظر الراشد الى العلم والحياة والناس والأشياء ، ويرى الحقائق لا الخيال ، فالراشد رجل الدنيا ، يفخر بعلمه وعمله .

* * *

وتساير مراحل النمو النظم التربوية المثلى ، فتناسب الطفولة الأولى حتى الخامسة مدارس الحضانة ، والطفولة المتأخرة حتى الثامنة رياض الأطفال ، والمدارس الابتدائية حتى الثانية عشرة ، والمراهقة المدارس الثانوية حتى الثامنة عشرة ، والرشد الجامعة تقريباً فإلى أي حدّ تقابل كل الحاجات النفسية لنزيلها في مدارسنا المصرية ؟ ذلك يحتاج الى المزيد من القول نعرض له في المقال الثاني ان شاء الله .

محمود عامر شوكت